محاضرات مقياس النص السردي المغاربي لطلبة السنة الثالثة دراسات أدبية ، إعداد أ: إبراهيم قادة

الأستاذ بونامي دوبريه يقول عن الرواية إنها "ذلك الشكل الأدبي الذي يقوم مقام مرآة للمجتمع ومادتها إنسان في المجتمع وأحداثها نتيجة لصراع الإنسان ضد الآخرين ، وينتج عن صراع الإنسان هذا خروج القاريء بفلسفة ما أو رؤية عن الإنسانية، كذلك يقول إرنست بيكر :" الرواية تفسير للحياة الإنسانية من خلال سرد نثري قصصي"

وليس هدف الرواية تغيير ما يحيط بنا من أشياء وتنسيقها ثم تحويلها إلى قوالب تقليدية مكررة، فذلك كفيل بأن يقضي على الفن بتكرار عدد صغير من القوالب الكلامية المألوفة إلى الأبد ،ويقضي على تطوره ويؤدي بنا إلى حائط مسدود،أما المحاولة التي تقوم بها الرواية والتي تعمل على بقائها على قيد الحياة بمجهودها المضني فهي محاولة الإمساك بنغمة الحياة وحيلها وإيقاعها الغريب غير المنتظم ،فبالقدر الذي يقدم لنا الروائي الحياة دون أن يعيد تنسيقها بقدر ما نشعر أنه يطلب إلينا أن نقنع ببديل للحياة

ولو أننا حاولنا معرفة شيء بسيط عن تصور بعض الروائيين المغاربة لماهية الرواية لوجدناهم على دراية بالخصائص التي تنفرد بها الرواية من أجل تصوير الحياة يقول عبد الكريم غلاب :" فن الرواية يتطور بتطور الحياة ، هو يعتمد على الحدث التاريخي ليبرز فترة من التاريخ لا باعتبارها تاريخا ولكن باعتبار ما وراء التاريخ ، اي العوامل النفسية والإنسانية والشخصية الخفية التي تحرك التاريخ ، المؤرخ يعنى بالحدث جامدا أو يعلله عليل باحث في الأصول الجغرافية والعرقية والاقتصادية التي تسير الحدث،ولكن الروائي يستهدف ما وراء الحدث ليعطي للتاريخ حياة حقيقية اختفت وراء الأحداث الاجتماعية من عوامل نفسية واجتماعية تحرك أبطال الرواية وتسير بهم نحو المصير الذي يحدده المؤلف"

الصراع في الرواية المغربية ، رواية "دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب أنموذجا

ومن هنا سنلتقط الخيط الذي سيقودنا إلى عالم غلاب الروائي في "دفنا الماضي" لنجد أنه يختار الفترة التاريخية التي تسبق نيل المغرب لاستقلاله بما اعتمل فيها من مقاومة وظهور حركات سرية وانتفاضات شعبية ووسائل قمع من قبل المحتل ،ثم بكل ما حفلت به من صراعات اجتماعية وطبية ومن ثمة كان كاتبا واقعيا اجتماعيا ،وهو قد انشغل ما وراء التاريخ من عوامل نفسية وإنسانية وشخصية تحرك أبطال الرواية وتسير بهم نحو المصير الذي حدده المؤلف كنتاج لحركة الرواية من الداخل ومنطق لأحداث وانعكاس العالم الخارجي على عالم الشخصيات الداخلي

ومنذ البداية نستطيع القول إن فاس بقسميها المتناقضين تماما تشكل الأرض التي تجري عليها أحداث الرواية بمثل ما اتخذ نجيب محفوظ لرواياته الاجتماعية الواقعية بيئة معينة داخل دائرة المدينة الكبرى القاهرة لا تخرج عن أحياء الأزهر والسيدة زينب وخان الخليلي ،،، لكن فاس تنقسم قسمان ، قسم تعيش فيه الطبقة البرجوازية الثرية، وقسم تطحن فيه الطبقة البائسة الفقيرة التي لا تجد لقمة خبز ، وعلى هذا فالرواية اختارت أسرة برجوازية في فترة كانت تحس بقيمتها وأهميتها ،بالنسبة للسلم الطبقي من جهة وبالقياس لما كانت تصوره من دور في المستقبل من جهة أخرى وقد عرفنا أن وجهاء الريف كانوا إلى حد كبير من صنع الإدارة الفرنسية ،وعائلة الحاج محمد التهامي تنتمي الى هذه الطبقة ويعمل الفلاحون عنده كخماسين لذا يقو باستغلالهم " فهو يعرف أنه يملك ويعرف أنه يملك الكثير، وأن الزمان ورعاية الفلاحين كفيلان بمضاعفة أملاكه،" وهو لا يستغني عن عمل هؤلاء الفلاحين لأنهم ما زالوا يخدمون الأرض كما لو كانت أرضهم بنفس المشاعر التي تتملكهم يوم كانت الأرض بين أيديهم ،وهذه الأرض من صنيعهم هم،لكن ملكيتها تحولت منهم إليه، ومن آبائهم إلى آبائه،هو اذن وريث المستغلين، واستمرأ عملية الاستغلال فزاد في ديونهم له حتى يجبرهم على بيع أراضيهم له،بأبخس الأثمان...

<u>المكان في النص السردي:</u>

الكاتب يحرص في البداية على تصوير البيئة المكانية وأن يحدد جغرافيتها حيث يقع القصر الذي انتهى أخيرا بكل ما فيه ومن فيه إلى الحاج التهامي تماما كما انتهت إليه الأرض بمن عليها وما عليها ، وجدي بالذكر أن المكان والبيئة المادية تشغل جانبا كبيرا من اهتمام عبد الكريم غلاب وذلك أنها تكاد تمثل شخصية من الشخصيات بأبعادها ودورها وتأثيرها وتأثرها ...وعلى هذا فإن حي المخفية واجهنا في البداية ممثلا للبرجوازية العريقة حيث يوجد مالكو الأراضي الزراعية يقول : كان حي المخفية بمدينة فاس مقر عائلة لتهامي وهي عائلة برجوازية موسرة ..وكان حي المخفية من أكثر الأحياء المفعمة حركة في فصل الربيع،فمعظم سكانه يتصلون بالأرض ويملكون خارج المدينة حقولا شاسعة أو ضياعا صغيرة ومن ثمة كان الحي يحفل كل سنة بحركة دائبة من تنقلات سكان البادية كما يحفل في فصل الصيف والشتاء بحركة البغال والحمير تحمل انتاج الحقول من قمح وشعير وزيتون..."

<u>الشخصيات في النص السردي</u>

سعى الكاتب جاهدا كي يقدم للقاريء "حياة كاملة" كانت عيشها الطبقة البرجوازية في تساوق وانسجام تام ،فهو يقدم كل شخصية من خلال علاقاتها الداخلية بأفراد العائلة ومن خلال سلوكها مع العالم الخارجي والمجتمع من حولها ، وإبان حواراتها وتصديها للمواقف وتحليلها للظواهر والأحداث وتعليقها على ما ترى ،وهو من جهة أخرى لا يعطي لشخصية قسطا أوفر

من الأخرى حرصا على خط سير الصراع الأساسي الذي يلعب دورا مهما في ربط أحداث الرواية بظروف الشخصيات وتكوينها النفسي ،إنه يريد أن يتحكم في الخيوط منذ البداية حى لا تفلت من يده فكان كل فصل مثابة لوحة مكملة للأخرى وصورة لكل شخصية من داخلها أكثر من خارجها وتقديم لها من داخل الحدث الدرامي نفسه.

ولا ينفي هذا بطبيعة لحال أن لكل شخصية من شخصيات الرواية عالمها الخاص بها لكنه رغم كل هذه العوالم المستقلة واختلاف تيارات الشخصيات واتجاهاتها في مجرى الرواية فإنها جميعا تنبع من نفس المنبع ولا تخرج عن الشكل الفني الذي ارتضاه الكاتب لروايته كما أن هذا لم يجعله يقف عند الشخصيات الثانوية وإنما كان يكتفي إزاءها أن يتركها تضفي على الشخصيات الرئيسية جوانب جديدة لم تكشفها فصول لرواية من قبل ،وعن طريق تفاعلها مع الأحداث ثم قلب الأدوار يستطيع القارئء أن يعرف عنها كل شيء من غير حاجة إلى تفصيل الكاتب واستطراده الذي قد يخرج به عن المجرى الشعوري العام والتيار المتدفق إلى قنوات متفرعة ثانوية

<u>الحدث والحبكة في النص السردي:</u>

ولأهمية الحدث في حد ذاته خصص له لكاتب الفصل الخامس من الرواية ليبرز لنا الجانب الاستغلالي للطبقة البرجوازية التي لا رعوي عن لإقدام عن إعمال لا إنسانية وكيف أنها تستغل الطبقة الفقيرة المعدمة ليس فقط في العمل من دون أجر وإنما في جعلها مصدرا للمتعة الجنسية وتحقيق النزوات بلا مقابل ، وليبين من جهة أخرى تمرد الطبقة الكادحة أحيانا وهي ليست في مركز قوة ، ثم ليرصد الآثار الاجتماعية والأخلاقية التي تنجم عن هذا الحادث ...وقد صور لنا الكاتب الحدث الجزئي وتعمق في رصد نفسية الحاج محمد متولي والتقط بآلته كل نبضاته الداخلية وانتفاضات عروقه وفوران الدم في شراييهم من خلال مراودته للفتاة "ياسمين" الكادحة المغلوبة على أمرها ، وقد بدا بناء الحدث البسيط بناء حيا متطورا لم يعتمد فيه الكاتب على السرد وحده وإنما على الاستبطان ،والمونولوج الداخلي، واسترجاع الصور ،ومحاولة تتبع نمو الرغبة وانعكاس الداخل على الانفعالات الخارجية وتغير الملامح وانقباض الصدر ثم انفراج الشفتين في لحظة ترقب مجيء الفتاة الشابة " انساقت ياسمين وهي تجر رجليها إلى غرفة سيدها كما ينساق الكبش الى المجزرة ،وعاد الظلام يخيم على القصر الهادئ وعاد سكان القصر إلى أحلامهم البريئة واستمرت نجوم الليل وي ترصد ما يحاول الظلام أن يستره من مباذل البشر،ولم يمر غير قليل حتى انبعثت من الغرفة صرخة أخرى مدوية رددتها أجنحة القصر الساكن في هدوئه وصمته، وكانت هذه المرة صرخة ياسمين"

هكذا يصور الكاتب الطبقة البرجوازية ليقول إن الجنس والتفكير فيه جزء أصيل لا يتجزء من حياتها والتي لا عمل لها في الحياة ولا شغل، تعيش في عطلة متصلة،مشلولة اليدين والساقين، لا يتحرك فيها إلا الجنس..وبدورها تستغل العمال وتطحنهم يوميا وتزيد من ساعات العمل ،وتخفض الأجور،وتحرم العمال من التأمينات الاجتماعية فقط لتنمو ثروتها ويكبر رأسمالها وتتعدد مصانعها وتكثر، وليمت الآخرون جوعا أو مرضا أو كمدا ...

<u>تجليات الصراع في النص السردي:</u>

إن الصراع الطبقي يكاد يغلب على فصول الرواية ، بين المستغِلِّين والمستغَلين وبالذات من أجل الأرض كرأسمال إو قوة سياسية من قوى الانتاج ووسائله الضرورية ،والعلاقة التي تترتب على شكل الملكية بين من يملكون لأرض وبين من يعملون بسواعدهم فيها ،كذلك نجد صراعا آخر داخل القصر نفسه بين الرجعية البورجوازية المحافظة ممثلة في الزوجة خدوج ،والطرف الآخر الممثل للتخلف والعبودية والفقر والأمية ممثلا في الخادمة ياسمين ...وهكذا ينتقل الكاتب في تصويره للصراع من الجزء إلى الكل ومن الضيق إلى الرحابة ومن الفرد إلى المجتمع..فالحياة لا تسير على وتيرة واحدة ولا تحدها أسوار معينة ثابتة لا تتغير ، ولأن المجتمع في الخارج يحظى بعدد لا بأس به من التناقضات والصراعات التي تعبر عن نفسها في أوقات الأزمات، هناك عناصر ثبات واستقرار ،وعناصر حركة وتطور ،هناك عناصر موروثة وأخرى مكتسبة ، هناك محاولة لإبقاء الأوضاع القائمة على ما هي عليه، وهناك صراع حاد ينتظم كل العلاقات والأحداث ، ومن ثمة كان لزاما على الرواية ألا تقف عند حد انتقال الفصول من شخصية إلة شخصية ،ومن حدث إلى حدث ، وألا تقتصر علر الربط بين هذا الحدث وتلك الشخصية ، بمواصلة السرد ومتابعة الحدث القصصي واستكماله بانتقال الفصول وتوزعها وتشعبها بين عناصره المختلفة فحسب، وإنما أن تجعل هذه الانتقالات بين الأحداث والشخصيات هي حركة الفصول بحيث يصبح التوزيع والتشعب حركة مخططة تكاد تفوم على قواعد محددة مدروسة فتوازي بين الأحداث والشخصيات أو تقابل وتعارض بينها" وهي بهذا تساعد على تعميق الأحاسيس والأفكار الأساسية في الرواية وتخضع البناء الفني لفلسفتها خضوعا داعيا، إن انتقال الفصول والارتباطات بين الأحداث والشخصيات يتخذ طابعا وظيفيا دقيقا قد يبلغ درجة دقة الآلة "

التجربة السردية في الرواية التونسية، رواية "المشرط" لكمال الرياحي أنموذجا :

عمد الرياحي في روايته إلى خلق عوالم سردية معينة في فضاءاتها الخاصة، ثم اقتطعها ليعيد لصقها ضمن عوالم سردية أخرى من خلال تجسيدها في فضاءات تخييلية جديدة تختلف عنها، ليتشكل بذلك عالم جديد يجمع بين مقاطع سردية عديدة متشابكة ومنسجمة تبعا للأحداث التي تبنى عليها الرواية تماما كما هو الحال بالنسبة العمل السينمائي حيث يقوم فيه المخرج بتصوير مشاهد متنوعة ومختلفة وفي مواقع وأزمنة عديدة ثم بعد ذلك يعيد ترتيبها عبر آليات اللقطة والتقطيع والتركيب

1- اللقطة: هي نقطة ارتكاز المونتاج السينمائي، وتكون غاية في الدقة خلال تصوير المشهد، لاسيما في مجال السرعة ومسافة التصوير، وهي تخرج إلى أنواع كثيرة منها اللقطة الشاملة واللقطة القريبة،والقريبة جدا،والمتوسطة والبعيدة و البعيدة جدا...

أ- اللقطة الشاملة:فيها يظهر المنظر أو الشخص كاملا دون تركيز على جانب أوجهة معينة في المنظر، ومثالها من رواية المشرط قول الرياحي : "تابعت سيري غير راكض ،لم يعد يفصلني عن غايتي سوى فراسخ معدودة، بعد نصف ساعة كنت بين جبلين، أطلّ على وهاد خضراء وسهول فسيحة" ,,هنا تتبدى صورة شاملة لمنظر لا متناه من السهول الفسيحة الواسعة والوهاد الخضراء الجميلة، وتلك النظرة الشاملة للمشهد تماثل ما ترصده حركة الكاميرا في بعض اللقطات السينمائية

ب - اللقطة البعيدة: يتم فيها التقاط صورة المنظر أو الشخص من زاوية بعيدة ومثالها من الرواية قول الرياحي:" التفت ورائي فتراءت لي المنافيخ فلم أقدر على حبس صرخة فرح كانت ترفس أمعائي ،فنظرت إلى السماء كالذئب أريد الصراخ عاليا كي تسمعني الملائكة والشياطين"،ولفظتا " قصية بعيدة" توحي بأن الصورة الماثلة أمامنا بعيدة جدا، ويستطيع القارئ تمثل مدى بعدها ،وإذا كانت اللقطات البعيدة يسهل رصدها في التصوير السينمائي فالأمر كذلك بالنسبة للروائي الذي يصف المشهد الماثل أمامه من زاوية بعيدة فتكون لغة الوصف هي التعبير الأدق لتفاصيل اللقطات البعيدة حيث يتاح للمتلقي عرفة أن السارد يقف على مسافة قصية من موضوع الوصف

جـ ـ اللقطة القريبة : يصور فيها الشخص أو منظر من زاوية قريبة ويتم فيها التركيز على شيء معين مثل تعابير الوجه الدقيقة وغيرها، ومثالها من الرواية قول الرياحي :"تحسست جبهته المتصببة عرقا فاشتعلت كفي" ، حيث إن فعل تحسس الجبهة ورؤية العرق يتقاطر منها، يشي بقرب اللقطة ووضوح معالمها ، ولعل التماثل بين اللقطتين القريبتين في كل من الرواية والسينما يقوم على مبدأ الوضوح والتجلي الجيد لصورة المشهد حيث يتم التركيز على موضوع اللقطة وتجنب وصف كل ما يحيط به، واللقطة القربية تساعد على رصد كل الحالات والوضعيات التي يكون عليها وضوع الوصف

د ـ اللقطة السريعة: هي عبارة عن تصوير لمجموعة من الحركات السريعة التي تحدث في وقت قصير جدا ، مثل قول الرياحي :" واصلت سيري مصحوبا بسرب من المخاخ يحرسني من وحشية تلك الأمم حتى أدركت الطريق المعبدة ، كانت الشاحنات والسيارات امزق الطريق في سرعة جنونية ،لم أعد أذكر غير يدي الممدودة إلى الطريق ، كان الضوء المعمي يتجه نحوي مسرعا ورفعت كفي أحتمي منه لكن فات الأوان ،كانت عظامي تتهشم تحت عجلات الشاحنة ,,,"

ولعل تسارع الأحداث في المشهد ووالي الحركات في وقت قصير هو خير دليل على أن اللقطة الموصوفة في ذلك المشهد تتسم بالسرعة وهذا ما يدفع بالأحداث إلى التنامي والتطور في زمن قصير

هـ ـ اللقطة البطيئة: وفيها تبدو حركة الأفعال بطيئة ومثالها من الرواية قول الرياحي :" كانت تحت ضوء الفانوس تصلح زينتاه ماضغة علكتها ,,توقفت أمام واجهة زجاجية لأحد المحلات ، اعترضتها صورتها بوجه إجاصة شاحبة ، أسقطتها رياح عاتية "

فإصلاح زينة المرأة أخذ منها وقتا غير قصير، كما أن توقفها أمام المحل وتأملها لوجهها الشاحب يوحي ببطء الحركة وتقلص وتيرة سرعتها

زمن السرد وزمن الرواية وتقنيات التشتيت :

يتشظى الزمن في الرواية لأسباب مختلفة تكون خيوطها دائما في يد السارد ، وهذا التشظي يقسمه الدارسون إلى زمن القصة ،وزمن سرد الأحداث ،وزمن فعل القراءة، وهذا التشتت الزمني يمكن رصده من خلال عملبات وتقنيات أهمها :

1- الاسترجاع: وفيه تتوقف عجلة الأحداث لتتم عملية استرجاع بعضها من الماضي إلى الحاضر في شكل سرد استذكاري ومثاله من الرواية قول الرياحي :" ذكرتني تلك التجاعيد بوجه أبي كان على العكس من ذلك أسمر أحرقته شمس القوايل وهموم الدنيا ومصائبها ،كانت

تخيط جبين أبي ثلاثة أودية عميقة ،وقفت ليلة احتضاره أفك رموزها ،فخمنت أن الوادي الأوسط كان وادي الفقر لذلك كان أكثر عمقا"...حيث يستحضر الكاتب في هذا النموذج صورة أبيه المسن، بوجهه المجعد وسمرته التي أكسبته إياها السنون ، أما عبارة " وقفت ليلة احتضاره" فهي استرجاع لموقف مضى مر به السارد وعلق بذاكرته

2 - الاستباق: وهو توقع أحداث لم تقع بعد ،وذلك من خلال بعض التلميحات والإيحاءات التي تستشرف أحداثا مستقبلية ومثاله من الرواية قول الرياحي : " أما زلت تذكرين ؟، انظري الدليل بالزيت على اللوح لن تمحوه السنون" وكذلك قوله :" الصورة بقيت على الحائط ،سأقص ليك قصتها عندما نستقر في بيتنا الجديد " ...ففعل القص هذا لم يجر وقوعه بعد وإنما سيحدث بعد الاستقرار في البيت الجديد ،وبالتالي فإن أحداث هذا المشهد جرى استباق موعد وقوعها

3- التلخيص : وهو سرد بعض الأحداث التي يفترض وقوعها في ساعات أو أشهر أو سنوات عديدة من خلال اختزالها وتلخيصها في بضع كلمات أو أسطر وهو ما يساعد على تسريع وتيرة السرد ومثاله قول الرياحي :" تعلن وزارة الثقافة والمحافظة على التراث أنه وقع التحوير في هيئة تمثال ابن خلدون المنتصب في قلب العاصمة التونسية بعدما نظرت في تقرير لجنة علماء الآثار والتاريخ"

حيث إن الإعلان عن هكذا قرار يتطلب بحثا وتقصيا وبعض الإجراءات التي تأخذ وقتا طويلا ربما يستغرق شهورا ، فتلخيص كل تلك المدة الزمنية علة مستوى السرد جرى من خلال وضع عبارة " بعدما نظرت في ..." مما يشي بأن الأمر استغرق وقتا معينا تصعب الإفاضة في تفاصيله

4 - الحذف : هو عملية التخلي عن السرد المسهب للأحداث التي وقعت في فترات زمنية سابقة،والاكتفاء بالإشارة إليها صريحا أو تلميحا، ومثاله قول الرياحي : " بعد نصف ساعة كنت بين جبلين .." ، فعبارة بعد نصف ساعة" حذفت مدة زمنية يصعب سرد كل تفاصيليها داخل النص

5- الوقفة: يتعطل فيها السرد ويكون في الدرجة الصفر من خلال وقوف السارد علة وصف تفاصيل الأحداث أو الشخصيات أو المشاهد وقد يستغرق ذلك عدة صفحات من الرواية ومثاله قول الرياحي : " دخلت مقهى الروتند كان خاويا خاليا إلا من سيدته كانت تبدو عليها شيخوخة واضحة وخاطت وجهه عشرات التجاعيد الدقيقة خطوط مثل الشعيرات ، وارتسمت عليه نقاط صفراء وبنية كأنها الحسنات قد تكاثرت وتجمعت "، حيث إن المشهد الموصوف عطل قليلا وتيرة السرد وخلق مساحة وصفية واسعة تبعث على التأمل والتدقيق في تفاصيل المشهد

، ومثاله أيضا قول الرياحي : " وأشار إلى موقع قريب فيه أشجار عملاقة ملساء الجذوع قليلة الأوراق تبدو كالأشباح في ذلك المساء، أخذني الفضول إلى ذلك المكان وعندما أشرفت عليه خنقتني رائحة كريهة كرائحة الجيفة ، احتميت منها بطرف برنسي وتقدمت ،كانت بقية جثة آدمي مشدودة في السماء من أطرافها الأربع بحبال إلى شجرتين ، أحشاؤها تتدلى إلى الأرض تنقرها طيور غريبة لم أتعرف منها إلا على الغربان ..وفي لك الأثناء حط طير ضخم كالنسر وليس بالنسر رأسه طويل مثل رأس البغل أو الحمار ،له فم بشفاه غليظة فتعجبت من ذلك الطير الذي لا يشبه الطيور ،ففرت هاربا"

حيث استرسل الكاتب في وصف تفاصيل المنظر الذي تحفه الأشجار العملاقة ذات الجذوع الملساء والرائحة الكريهة المنبعثة من المكان وبقايا الجثة البشرية التي تحيط بها أصناف الطيور ...ويلاحظ أن عامل الوصف ضمن هذا السياق أدى وظيفة تعطيل سيرورة الحكائية وفرملة زمن السرد ليضع المتلقي في جو الحدث ومن ثمة العمل على إشباع فضوله حول تفاصيل الحدث

6 - المشهد : يتعطل فيه السرد من خلال التركيز على أدق تفاصيل الأحداث وعادة ما يتجسد المشهد في صورة حوار الشخصيات ليتم الوقوف على السمات الاجتماعية والنفسية للشخصيات المتحاورة ومثاله الجدل الذي يدور على لسان آدم وحواء حول سبب خروجهما من الجنة يقول الرياحي : " آدم : أقسم بهذه الجبال وهذه السماء وهذا القدر الأحمر الذي أمشيه حافيا أنني بريء وأن يدي ما لمست ثمرة الحرام ...لماذا لا تعترفين يا حواء ؟ لماذا لا تقولين الحقيقة؟، ترد عليه حواء: من قال اني أنا لتي أكلت ؟ لماذا لا تكون أنت ؟ ، ثم يحدث نفسه قائلا : خطيئتنا هي سوأتنا لو كنت تعلمين ستصاحبنا اللعنة إلى يوم الدين سيلعننا نسلنا وسيلتف حولنا أحفادنا ويسألوننا عن فعلتنا ، لماذا يا حواء؟ لماذا خالفت أوامر الرب؟، وتحدث هي نفسها أيضا : ماذا أقول له هذا الرجل الغبي؟ألا يعلم أن الامر أكبر من قطف تفاحة ؟ ألا يذكر ما اقترفناه ليلة البارحة؟ "

فالمشهد ضمن هذا النموذج من الرواية كان قد ورد في شكل حوار جدلي بين شخصيتي آدم وحواء حول مسألة الخطيئة والوقوع في المحظور وكل منهما يحاول تبرئة ذمته من العصيان وتحميل الآخر مسؤولية الجرم، أما إذا عدنا إلى دلالات المشهد الروائي فلعله يرمي إلى تصوير الصراع والجدال الدائمين حول مسألة الخطيئة ، وهي رؤية فكرية فلسفية تتعلق بالجانب الديني والإنساني وقد أراد كاتب الرواية طرحها وفق قالب فني يفتح المجال واسعا أمام المتلقي المثقف ليؤول ويجادل في تلك المسألة

حضور الأدب الشعبي في النص السردي الجزائري :- رواية نوار اللوز لواسيني ألأعرج أنموذجا

مسألة التداخل الأجناسي بين الرواية والادب الشعبي من أكثر المسائل النقدية التي أفاض في الحديث عنها جمع من الباحثين والدارسين، ذلك أن الموروث الشعبي جزء لا يتجزء من الهوية الإنسانية وهو لسان حال ألأمم التي عبرت عن مواقفها وتجاربها الفردية والجماعية عبر والي الأزمنة والعصور من خلال إبداعات شعبية مفعمة بالدلالات العميقة والزاخرة بالمعاني ذات الأبعاد الوجدانية والثقافية والنفسية والاجتماعية ، وعليه ارتأى أديب العصر أن يستند إلى تلك المرجعيات الفكرية السابقة لببني عليها منجزه الروائي المعاصر محاولا تقديم مقاربات للواقع الراهن من خلال ربطه بالماضي ، وبالتالي فإن استحضار الموروث الشعبي يعد بمثابة ربط للصلة بين الماضي والحاضر على ألا تكون الغاية من إحيائه على أساس أنه تراث جامد وميت ، بل على أن تكون الغاية النظر إليه على أنه وسيلة تعيننا في التعبير عن هموم الحاضر، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من النقاد والأدباء ارتأوا قطع الصلة بالرواية الغربية التي لازمت الرواية العربية كظلها وراحوا يبذلون جهودا في سبيل التمهيد لظاهرة توظيف التراث في الرواية المعاصرة ، وقد وجد هؤلاء الباحثون أن كب التراث تنطوي على ألوان كثيرة من القصص كالقصص الديني والقصص الأسطوري والقصص الفلسفي والمقامات ، فما كان منهم إلا أن قطعوا الصلة بالرواية الغربية ونسبوا رواياتهم إلى الأشكال القصصية والسردية الموجودة في بطون كتب التراث ، ومن هذا المنطلق صارت الرواية العربية عامة والمغاربية خاصة عملا إبداعي متفردا يحمل في ذاته بذور الأصالة والمعاصرة وتنبثق عن رؤية واعية للفن والإبداع ولم تعد الرواية الغربية هي المرجع الأساس للتشكيل الفني الروائي وإنما صار التراث أو الموروث الشعبي بأبعاده الفنية الكاملة هو المنبع الرئيس الذي تستقي منه الرواية المغاربية والعربية أسسها الجمالية ومضامينها الفكرية والدلالية

ولم يكن اختيارنا لرواية نوار اللوز عبثا أو محض صدفة ، وإنما لتمثيلها الجلي لتيمة الأدب الشعبي كما أنها بنيت فنيا على شاكلة السيرة الشعبية لتي هي نواة التراث الشعبي ومحوره الذي تدور حوله باقي العناصر التراثية المعروفة ، فالسيرة الشعبية نموذج لتداخل الأجناس وتفاعلها فهي تحمل بين طياتها شتى الأنساق التعبيرية ذات الامتداد الثقافي والفكري لعريق من مثل الأغنية الشعبية والحكاية الخرافية والحكم والأمثال والأساطير مما يشكل بنية الموروث الشعبي بمعانيه كلها و "نوار اللوز" حظيت بقسط لا بأس به من آليات اشتغال التراث الشعبي داخل نسيجها ولعل مرد ذلك رغبة الأديب في رسم ملامح واقعية للمجتمع من خلال تتبعه لمسار البطل " صالح بن عامر الزوفري" ورصد تحركاته ومواقفه وتجاربه اليومية مع استنطاق فني على ألسنة الشخصيات للسيرة الهلالية باستحضار بعض أقوال أبطالها ومجريات رحلتهم الطويلة مع ما صحبها من مواقف ساخرة أحيانا ومتأزمة أحيانا أخرى وهي سمة فنية من سمات الرواية الحديثة كون المتحدث يتخلى طوعا عن صوته متخذا صوتا آخر لكي ينطق بمقطع من كلام ليس له وإنما يستشهد به فقط

أما قبائل بني هلال فقد خلدت مواقفهم الحياتية المتعددة بفضل السيرة الشعبية التي رافقت حياتهم ورحلاتهم وأعراسهم ومآتمهم وقد أضحت سيرتهم تلك محل بحث ودراسة، فهناك من اعتبرها أسطورة عجائبية واهتم بها جماليا وفنيا على هذا الأساس ، وهناك من توغل في أعماقها ورصد حياة أبطالها وحلل مواقفهم وأوّل سلوكهم كل حسب اتجاهه وميوله .

اما واسيني الأعرج فقد اتخذها نموذجا فنيا بنى على أساسه أحداث الرواية والتي أخذت بذبك طابع الواقعية كونها رسمت التاريخ في قالب سردي تخييلي ممتع كما استلهم منها بعض الخصائص الفنية كالخيال الخصب واللغة الرائقة وسرد الأحداث واستثمار الأجناس ،ومن تلك الأجناس نجد المثل الشعبي الذي ورد بشكل لافت ولعل السبب يعود إلى سهولة تداوله ونقل حمولته الدلالية التي تختزل كثيرا مما يود الكاتب البوح به، لكنه ولتميزه بسعة انتشاره بين شرائح واسعة من المجتمع على اختلاف ثقافتها فهو يعبر عن الضمير الجمعي للكاتب ولمجتمعه، ويمثل صلة الوصل التي تجمع الماضي بالحاضر يضاف إلى هذا الأمر أنه ومع مرور الزمن وتعاقب الأجيال تكتسب الأمثال شرعية وسلطة إقناعية ضمن الجماعة ولما أدرك الروائي ذلك وظف هذا النمط من الأشكال التعبيرية الشعبية لما لها من سلطة إقناعية في الثقافة الشعبية الجزائرية ، ومن لم الأمثال الاحضرة في الرواية :

ـ مقطوعة من شجرة : وهو مثل يضرب للشخص الذي لا تحيط به عائلة أو أصدقاء فيكون وحيدا كالغصن المقطوع من الشجرة لا فائدة فيه ولا شيء يشده إلى الأصل الذي خرج منه والفرع الذي انتسب إليه

ـ سل المجرب ولا تسل الطبيب :يضرب للشخص الذي عركته الحياة وخبر اهلها وتقلب الزمان وغدر الإخوان فتصبحله حكمة تضاهي بل تربو على خبرة الطبيب في مداواة المرضى

ـ عش لي شافك: يقال للشخص الذي طالت غيبته وتبدبت ملامحه وفاتته أحداث في موطنه الأول

ـ اخدم يا التاعس للناعس : يضرب للشخص الذي يعمل ويذهب فيئه لمن هو في حماه أوكفالته كالأخ وغبره

ـ قد ما عنك قد ما تسوى: يضرب لمن يحاج في منزلته الاجتماعية

المراجع المعتمدة:

ـ د سيد حامد النساج : أدب التحدي السياسي في المغرب العربي، دار الرأي ،بيروت ، لبنان، دت

ـ محمد صابر عيد :سيمياء التشكيل الروائي، دار فضاءات ، بيروت ، لبنان، 2007

ـ العمري بن هاشم :التجريب في الرواية المغاربية ،دار الأمان ، الرباط ، المغرب،دت

ـ مهدي صلاح الجويدي : التشكيل المرئي في النص الروائي الجديد، دار عالم الكتب ، عمان ، الأردن،دت

ـ عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري ، دار القصبة، الجزائر، 2007

ـ يمنى العيد :تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان، 2010

إبراهيم خليل : أساسيات الرواية، دار فضاءات، عمان ، الأردن

ـ عبد المالك مرتاض : القصة الجزائرية المعاصرة ، المؤسسة الوطنية للكتب ، الجزائر ، 1990